



22 يناير 2009

كتب: بقلم: جمال عبد الغفار بدوي

إن الوقوف على قيمة المضحك في الأدب العربي، لن تتأني دون رصد التطور الذي لَجَقَ به، ومن ثمَّ؛ فجدبنا أن نتساءل عن العلاقة بين النادرة، كأول صورةٍ فنيةٍ للمضحك في النثر العربي، وبين الرسالة كأول تطورٍ لحق بالمضحك بعد النادرة، ما كنه هذه العلاقة؟ وما قيمتها؟

والوقوف على حقيقة هذه العلاقة يمكن أن يضيء جوانب الطريق أمامنا في محاولة تحديد التطور الذي لحق بالمضحك؛ حيث لا يكفي أن نقول: إن الرسالة كانت تطورًا فنيًا لحق بالمضحك ظهرت فيه ذاتية المؤلف، وزادت المساحة الزمنية للفكاهة والسخرية والهزل عمَّا كانت عليه في النادرة؛ لأن هذه الحقائق لا تحدّد علاقة مباشرةً- يركن إليها البحث باطمئنان- بين كلٍّ من النادرة والرسالة.

إن الجاحظ لم يظهر في رسالته "التربيع والتدوير" التأثير المباشر للنادرة، ويرجع ذلك إلى الشكل الفني الذي انتهجه، ولكننا نجد هذا التأثير المباشر- الذي نعنيه- في الرسائل الهزلية بصورةٍ ما، غير أننا نود أن نُسجّل أهمية هذا الجانب لصلالة الرسائل الفكاهية من ناحية الكمِّ بالمقارنة بالنواتر التي تتفوق كثيرًا في هذا الجانب، أي إن قيمة الرسائل الفكاهية تأتي ممَّا أحدثته من تطورٍ في مسيرة المضحك، ولمَّا كانت الرسائل غير مهياة لاستيعاب أشكال المضحك كافة- لطبيعتها وشكلها الفني- فإن استحداث شكلٍ آخر أكثر مواءمة كان هو الحل الأمثل، وقد تحقق ذلك في المقامة.

يبقى هذا التحليل مجرّد ظنٍ وتخمين إن لم يقم عليه الدليل الذي يثبت وضوح هذه الرؤى في أذهان كُتّاب الرسائل أو معاناتهم الفنية- إن صحَّ التعبير- في محاولة البحث عن الشكل الفني الذي يستوعب إبداعاتهم، وكذلك يُثبت العلاقة المادية بين هذه الأشكال المختلفة.

وأول ما يواجهنا من التأثير المباشر للنادرة في الرسالة هو قول "أبي إسحاق الصابي" في عهد التطفل: "وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة، طعل على وليمة، لرجل ذي حالٍ عظيمة، فرمقته فيها من القوم العيون، وضرفت بهم فيه الطنون، فقال له فائلٌ منهم: من تكون أعزك الله؟ فقال: أنا أوّل من دُعي إلى هذا الحق. قيل له: وكيف ذاك ونحن لا نعرفك؟ فقال: إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعزّفه نفسي. فجيء به إليه، فلما رآه بدّاه بأن قال له: هل قُلت لمباخك: أن يصنع طعامك زائدًا على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوّين؟ قال: نعم! قال: فإنما تلك الزيادة لي ولأمنالي، وبها يُشتطهر لمن جَزى مَجْرَأي، وهي رزقٌ لنا أنزله الله على يدك وبك، فقال له: كرامةٌ وزحّبا، وأهلاً وفرّبا، والله لا جليست إلا مع عليّة الناس وُوجوه الجلساء، إذ أطرفت في قولك، وتغننت في فعلك، فليكن ذلك الرجلُ إمامًا يُفتدى به، ويفتقى طريقه، إن شاء الله" (1).

هذه نادرة ضمنها أبو إسحاق رسالته، وقد قام بصياغتها بما يتماشى مع الشكل الفني للرسالة وأسلوبها المتمشج بالسجع، ولسنا في حاجةٍ إلى أن نبحت عن أصول النادرة لإثبات ذلك، فالأمر من الوضوح بما لا يدع مجالاً للشك، غير أن الخطيب البغدادي روى أصل النادرة في كتابه "التطفيل" على النحو التالي:

"أبنا الحسين بن محمد بن جعفر الرافعي... أبنا أحمد بن الحسن المقرئ قال: قيل لبنا من دخل إلى طعام من غير أن يدعى إليه دخل لماً وخرج مُغبراً، قال: ما أكله إلا حلالاً. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أليس يقول صاحب الوليمة للخباز: زد في كل شيء، وإذا أراد أن يطعم مائة قَدَّرَ مائة وعشرين فإنه يجيئنا من نريد ومن لا نريد. فأنا مما لا يريد) (2).

قد لا تكون هناك قيمة فنية حقيقية لمثل هذا التضمين أو الاقتباس من النوادر، غير أن بديع الزمان الهمداني قد استخدمه بما يؤكد أهمية النادرة كمصدر أول للفكاهة والضحك في الأدب العربي، إذ لم يكن بالافتباس والتضمين، ولكنه أنشأ رسالته كاملةً معتمداً على النادرة، ومن ذلك تعامله مع النادرة التالية:

"قال أبو عبد الله بن الأعرابي: كنت جالساً بالكوفة، فرأيت أعمى قد وقف بنحاس، فقال له: يا نحاس! اطلب لي حمزاً ليس بالكبير المشتهر، ولا الصغير المحنقر، إن خلا الطريق تدفق، وإن كثر الزحام ترفق، لا يصادم بي السواري، ولا يدخلني تحت البواري، إذا أقللت علفه صبر، وإذا أكثرته شكر، إن ركبته هام، وإن ركبه غيري قام، قال له النحاس: يا عبد الله! إن مُسَخ القاضي حمزاً طفرت بحاجتك!" (3).

لقد أخذ الهمداني هذه النادرة وأعاد صياغتها على شكل رسالة جاء فيها:

"وقد احتيج في الدار إلى بقرة يحلب درها، فلتكن صفوفاً تجمع بين قعيين في حلية، كما تنظم بين دلوين في شربة، وليملاً العين وصفها، كما يملأ اليد خلفها، وليزن مشيها سعة الذرع، كما يزين درها سعة الضرع، ولتكن عوان السن، بين البكر والمسن، ولتكن طروح الفحل، رموح الرجل، وليصف لونها، صفاء لبنها، وليكن ثمنها كفاء سمنها، ولتكن رخصة اللحم، جمة الشحم، كثيرة الطعم، سريعة الهضم.....".

ويستطرد في وصف البقرة ثم يختم رسالته بقوله :

"ولا أظنك تجدها اللهم إلا أن يُمسَخ القاضي بقرةً وهو على رأي التناسخ جائز....." (4).

وعلى الرغم من شهرة النادرة نجد الدكتور مصطفى الشكعة لا يلتفت إلى هذا الأمر حين عرض لهذه الرسالة (5) في كتابه (الأدب في موكب الحضارة) وقيل ذلك في رسالته عن (بديع الزمان الهمداني رائد القصة العربية والمقالة الصحفية) الذي أنشأ فيه فصلاً للحديث عن "خصائص وسمات في أسلوب رسائل بديع الزمان" سجل فيها حرص "بديع الزمان" على الاقتباس من القرآن الكريم، ومن الشعر وكذلك من الأمثال والحكم ولم يشير إلى النوادر إلا في كلمات مبهمة (6).

ولم تكن هذه الرسالة هي الوحيدة التي أنشأها الهمداني على هذا النحو فهناك رسالة أخرى جاء فيها:

"النادرة أطل الله بقاء القاضي تبطئ، ولا تخطئ، وفي مضحكات الأحاديث، أن عدة من المخائث، قدموا إلى أمير فضرب أحدهم بالسياط وهو ينشده بالله العظيم، وكتابه الكريم، ورسوله الأمين، ويذكره الدين وحرمة المسلمين، والسياط تُوفيه نصيبه، والمخنت يجعل الله حسيبه، ثم قدم الباؤون فعمل بهم، ما فعل بصاحبهم، فقال الأخير: يا حمير، كذا يحلف الأمير، اصبروا حتى أقدم، واسمعوا حتى أتكم، فلما جرد للسياط قال: أيها الأمير بقاءً والدتك إلا عفوت عني، فقد أخذ الخوف مني، فغضب الأمير وقال: علي بالسياط، حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، مالك ولذكر الحرم، فحلفه المخنت بطرتها ثم بغرتها، ثم صار إلى نعرها، ثم تدحرج إلى سرتها، فلما انتهى إلى السرة، أشفق الأمير على الحرة، فقال: خلوه، قد والله بلغت السرة أو زدت، وصرت إلى الدرة أو كدت، وماذا بعد الحق إلا الضلال، وهل بعد النثر إلا النكال، لا يفعل القاضي أبده الله آخر السرة، أول الغرة، ما له ولأصحاب الحديث، والله لينتهين عن علمائهم وهو كريم، أو لينتهين وهو لئيم، وهذا العقبة ميمون وإن بعد عن داره، فلم يبعد عن مقداره، وإن لم تحضر أقرابه فهذي عقاربه، لفظه "أف"، فإن لم تغن فجلاميد تملأ الأكف، ثم الله أعلم بما في الخف، والنشر قبيح أنواعه، فليكنف عن سماعه، ووراء هذه الجملة تفصيل، وهُم طويل، وقال وقيل، وخطب ثقيل، فإن أراح أرحت، وإن أحوج شرحت) (7).

والنادرة التي استخدمها الهمداني- وأشار إليها في بداية الرسالة مفصلاً عن مصدره بتحديد النادرة ومضحكات الأحاديث! هي:

"قال المدائني: أيتي وإل برجلٍ قد جنى فأمر بضره فمُدَّ، فلما أخذ الضرب، قال للوالي: بحق رأس أمك عليك لما عَفَوْتُ عني. قال: اصبر، قال: بحق عينيها. قال: اصبر، قال: بحق خديها، قال: اصبر. قال: بحق نحرها، كل ذلك يقول اصبر، فقال الوالي: ويلكم خلوة لئلا ينحدر" (8).

إذن فلم تكن النادرة غائبة عن الأذهان ووجدنا الأدباء حين شرعوا في إنشاء الرسائل الفكاهية، يعدونها مصدرًا مهمًا للاقتباس والتضمين، وتمثل المادة الكاملة للرسالة كما نجد في بعض رسائل الهمداني.

لقد استطاع الهمداني بطريقته الغنية هذه، أن يضيف "الحدث" إلى الرسالة، وهو ما كانت تفتقده، واستطاع أيضًا أن يعيد صياغة

النادرة في أسلوب أدبي رفيع مزين بأشكال الصنعة المتمثلة في السجع محافظاً على النادرة في الوقت نفسه.

تزداد قيمة هذه المحاولة الفنية لصدورها عن "بديع الزمان الهمداني" لأنها تصور معاناته الفنية في البحث عن شكلٍ يرضي موهبته في الإضحاك، فإذا كانت النادرة لا تصلح للإبداع الذي يستوعب ذاتية المؤلف، وتحتل السخرية والهزل مساحة كبيرة فيه، كما أنها لا تصلح للتعبير عن الأحداث ذات الطابع الدرامي... إلخ، فهذا هو "بديع الزمان" يحاول تطويع الرسالة لعلها تلبي حاجته الفنية متكئاً على النادرة التي تمثل الرافد الأول والهام للفكاهة العربية.

إن قيمة هذه المحاولات لا تقف عند إيجاد صلة بين النوادر والرسائل، بل تتعدى ذلك إلى ربط كليهما بالمقامة؛ وذلك لصدور هذه المحاولات عن الهمداني؛ حيث كان مهموماً بالوصول إلى شكلٍ يستوعب موهبته وإبداعاته، كما تفسّر لنا هذه الرسائل أن المقامة لم تولد مصادفة على يديه، تمامًا كما كان الجاحظ أهلاً لإنشاء "التربيع والتدوير" بما يملكه من ثقافة وقدرة على السخرية، وبدرابته بفنون الضحك، كذلك يمكننا القول، إن الهمداني كان أهلاً لإنشاء المقامة شكلاً فنياً جديداً ملائماً لاستيعاب ما طرأ على المضحك من تطور على أيدي الأدباء.

ومن الجدير بالالتفات هو أن الرسائل الفكاهية كانت تمهيداً للموضوعات التي تعتمد على الكدبة والاحتيال ممّا ظهر بشكلٍ واضح في المقامة، ورسالة (عهد التطفيل) نموذج لذلك. وتُسجّل أيضاً أن السجع عند الهمداني كان ممبّراً إذ كان يلتزمه، لا يجيد عنه، كما تتضح شخصيته فيه بارزة، ومن يقرأ بعض رسائله لا يُفرّق بينها وبين بعض مقاماته خاصةً حينما يستجدي العطاء أو يفحش في السباب والتشائم ومن ذلك (... رقعة إلى مستمخ عاوده مراراً) يقول فيها:

"عافاك الله مَثَلُ الإنسان، في الإحسان، مثل الأشجار، في الإثمار، سبيل مَنْ أتى بالحسنة، أن يرفه إلى السنة، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدي، وهما فؤادي ويدي، أما العؤاد فيعلق بالوفود، وأما اليد فتولع بالجود، ولكن هذا الخلق النفيس، لا يساعده الكيس، وهذا الطبع الكريم، ليس يحتمله العريم، ولا قرابة بين الأدب، والذهب، فلما جمعت أبيينهما، والأدب لا يمكن ثرده في قصعة، ولا صرفه في ثمن سلعة، ولا مع الأدب نادرة جهدت في هذه الأيام بالطباح، أن يطبخ من جيمية "الشماخ" لوئاً فلم يفعل، وبالقصاب أن يسمع أدب الكتاب، فلم يقبل، واحتيج في البيت، إلى شيء من الزيت، فأنشدت شيئاً من شعر "الكميت" ألقاً ومائتي بيت، فلم يغن ولو وقعت أرجوزة "العجاج"، في نوابل السكياح، ما عدمتها عندي، ولكن ليست تقفع، فما أصنع، فإن كنت تحسب اختلافك إليّ، إفضالاً عليّ فراحتي، ألا تطرق ساحتي، وفرجي، ألا تجي، والسلام) (9).

تظهر في هذه الرسالة السمات التي طبع بها الهمداني مقاماته من حرصه على السجع الذي كان يقوده إلى الصور الطريفة كقوله: "واحتيج في البيت، إلى شيء من الزيت، فأنشدت شيئاً من شعر الكميت،..... إلخ".

كما أن موضوع المقارنة بين الأدب والذهب من الموضوعات المفضلة في المقامة.

وخلاصة القول: إن الرسائل الفكاهية على قلة عددها كانت حلقة مهمة في مسيرة المضحك لا يمكن إغفالها أو تجاهلها؛ إذ إنها تُفسّر محاولات الأدباء في البحث عن شكلٍ فني يستوعب احتياجاتهم وإبداعاتهم قبل أن يصل بديع الزمان الهمداني إلى المقامة.

* الحواشي:

(1) صبح الأعشى- القلقشندي- ج 14- ص 365.

(2) التطفيل- الخطيب البغدادي- مكتبة القدسي- القاهرة- الطبعة الثانية- ديسمبر 1983م- ص 28.

(3) أخبار الطراف والمتماجين- ابن الجوزي- ص 187.

(4) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمداني- طبعة ثالثة- طبعت في مطبعة هندية في مصر- 1898 م- ص 325.

(5) انظر: الأدب في موكب الحصار- د. مصطفى الشكعة- ص 619.

(6) انظر: بديع الزمان الهمداني- رائد القصة العربية والمقالة الصحفية- د. مصطفى الشكعة- مكتبة القاهرة الحديثة- 1959 م- ص 163 وما بعدها.

(7) رسائل بديع الزمان الهمداني- ص 148.

(8) البصائر والذخائر- التوحیدی- تحقيق د. وداد القاضي- دار صادر- بيروت- الطبعة الرابعة- 1999م- مجلد 3- ج 5- ص 192.

**** المصادر والمراجع:**

- (1) أخبار الطراف والمتماجين- ابن الجوزي- تحقيق محمد أنيس مهرات- دار الحكمة- دمشق- الطبعة الأولى- 1987م .
- (2) الأدب في موكب الحضارة- د. مصطفى الشكعة- مكتبة الأنجلو المصرية- 1968م .
- (3) بديع الزمان الهمذاني، رائد القصة العربية والمقالة الصحفية- د. مصطفى الشكعة- مكتبة القاهرة الحديثة- 1959 م .
- (4) البصائر والذخائر- التوحيدي- تحقيق د . وداد القاضي- دار صادر- بيروت- الطبعة الرابعة- 1999م .
- (5) التطفيل- الخطيب البغدادي- مكتبة القدسي- القاهرة- الطبعة الثانية- ديسمبر 1983م.
- (6) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني- طبعة ثالثة- طبعت في مطبعة هندية في مصر - 1898 م.
- (7) صبح الأعشى- القلقشندي- المطبعة الأميرية- 1918م.